

حب غريب معاكس لحب الناس، هدف أحد طرفيه، اختبار الإخلاص، وتجريب متعة الوفاء مع الحرمان. وهو حبٌ ينبغي أن ينبت وينمو رغم هتافات الجسد الهادرة... وإذا نزلنا من الحلم إلى الواقع، وتصوّرنا المرأة وطناً، كما أوحى لنا الرواية، أبَدْنَا قولنا السابق بالآتي: على الحب أن ينمو ويزدهر رغم كل ألوان الكراهية والعنف والخراب، التي يمور بها واقع الجزائر اليوم ويطفح. إنَّ شأن الوطن كان هاجس الكاتبة في روايتها الأولى ((ذاكرة الجسد))، وهو هاجسها أيضاً في روايتها الثانية ((فوضى الحواس))، التي تعد الجزء الثاني من مشروعه الروائي، الذي ربّما لم ينتهِ هنا. وسوف نرى وشائج قوية بين العاملين المذكورين تجعل قراءة العمل الأخير بمعزل عن العمل الأول مُتَعَذِّرة.

وقد بدأت الكاتبة عملها الأخير ((فوضى الحواس)) بالإعلان عن مخاض النص الإبداعي من خلال فصلها الأول الذي تذكر فيه أنها كتبت قصة قصيرة بعنوان ((صاحب المعطف)) قدّمت فيها إرْهاصات كثيرة لما سيأتي في القصة الرئيسية، فكانت هذه القصة كمقدمة للأخبار التي سيأتي تفصيلها فيما بعد، أو مثل صورة مصغرة عن مجمل الرواية التي سيلي تكبيرها لاحقاً.. وقد فعل فعلها هذا كتاب آخر فأنست همنغواي طور قصة قصيرة كان كتبها سنة ١٩٣٦ لتصبح رواية ((الشيخ والبحر)) - (انظر بحث في تجربة الكتابة ص ١١٢). وحنّا مينه أيضاً طور قصة المرصد القصيرة، لتصبح رواية كاملة قائمة برأسها هي (المرصد) ذاتها.

واختارت الكاتبة أسلوب المزج بين (الأنا) الساردة، والد (هي) العاشقة، فهي مرة تراقب العاشقين في قصتها، ثم تتلبّس دور العاشقة فيما بعد، فبينما هي تشاهد فيلماً سينمائياً لبطلتي قصتها الخياليتين، يأتي رجل ليجلس جوارها، ومن خلال كلمتين اثنتين تفوّه بهما في السينما، عرفتُه، أو كادت، فهو لم يقل سوى ((قطعا)) و ((طبعاً)). وهاتان الكلمتان تدلّان على القطع والحسم، وكان الحبيب الأول في رواية ((ذاكرة الجسد)) يحبّ القطع والحسم، لذا خامرها الشك في أن يكون هو ذاته الذي ساقه القدر إلى السينما ذاتها، لمشاهدة الفيلم ذاته، وليكمل القصة التي بدأت في الجزء الأول من المشروع الروائي. وفي حيلة فنية راحت الكاتبة تقول: ((لم يكن مهماً لحظتها أن تكون تلك المرأة التي جلست إلى جواره ((هي)) أم ((أنا))، فقد حدثت الأشياء بيننا كما أرادها في عتمة قاعة سينما)) - ((فوضى الحواس ٥٩ ص)). ولئن كان الراوي في ((ذاكرة الجسد)) قد جاء بصيغة المتكلم المذكّر، فإنه جاء في ((فوضى الحواس)) بصيغة المتكلم المؤنث.